

صلة الحلاج بالله:

هذا الحلاج المحب الفاني، العابد المثالي، السابح في وجدده، المحترق في تجربته، المشوق في قربه، الذي ملأ الدنيا بضجيج ضراعاته ومواجيده، قد امتلأت صحف التاريخ بالتهاويل والأباطيل، حول حبه وعقيدته، وحول إيمانه وصلته بربه! وصفوه بأنه حلولي ينادي بالحلول، ويتخذ الحب والفناء معراجاً لغايته، وتنادوا بأنه اتحادي، يحاول برياضاته ومجاهداته وشطحاته، أن يتحد بموجده في تجربة مهمة غامضة! وأنه اتخذ من الوجد والنشوة عند السماع والاستغراق سبيلاً إلى هدفه، حتى أصبح في سكره وسبحاته يقول في دعاوى عريضة... أنا عوضاً عن هو! تأليهاً لنفسه وللإنسان المحتبى المختار الكامل، الذي يجد في ذاته حقيقة... صورة الله!

فهل كان الحلاج كما قالوا؟ وهل كان الحلاج كما وصفوا؟ لنمشِ معه خطوات في مناجاته لربه، وخطوات في حديثه عن صلة الإنسان بخالقه.

قال أحمد بن فاتك: «قال الحلاج: من ظن أن الألوهية تمتزج بالبشرية، أو البشرية تمتزج بالألوهية فقد كفر، فإن الله انفراد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، فلا يشبههم بوجه من الوجوه، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء، وكيف يتصور الشبه بين القديم والمحدث، ومن زعم أن الباري في مكان، أو على مكان، أو متصل بمكان، أو يتصور على الضمير، أو يتخايل في الأوهام، أو يدخل تحت الصفة والنعت فقد أشرك».

وعن الحسين بن حمدان قال: دخلت على الحلاج يوماً فقلت له: أريد أن أطلب الله فأين أطلبه؟ فاحمرت وجنتاه وقال: «الحق تعالى على الأين والمكان، وتفرد عن الوقت والزمان، وتتره عن القلب والجنان، واحتجب عن الكشف والبيان، وتقدس عن إدراك العيون، وعمّا تحيط به أوهام الظنون، تفرد عن الخلق بالقدم، كما تفردوا عنه بالحدوث، فمن كانت هذه صفته كيف يُطلب السبيل إليه؟!».

قال ابن فاتك: «قصدت الحلاج ليلة فرأيتَه يصلي فقامت خلفه فلما سلم قال: اللهم أنت المأمول بكل خير، والمستول عن كل مهم، والمرجو منك قضاء كل حاجة، والمطلوب من فضلك الواسع كل عفو ورحمة.

وأنت تعلم ولا تُعلم، وترى ولا تُرى، وتخبر عن كوامن أسرار ضمائر خلقك، وأنت على كل شيء قدير. وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك، وعواطر قربك، أستحقر الراسيات، وأستخف الأرضين والسماوات، وبحقك لو بعثت مني الجنة، بلمحة من وقتي، أو بطرفة من أحر أنفاسي لما اشتريتها، ولو عرضت علي النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتها في مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك مني، فاعف عن الخلق ولا تعف عني، وارحمهم ولا ترحمني، فلا أخاصمك لنفسي، ولا أسألك بحقي، فافعل بي ما تريد.

فلما فرغ قام إلى صلاةٍ أخرى وقرأ الفاتحة، وافتتح بسورة النور وبلغ إلى سورة النمل، فلما بلغ إلى قوله تعالى: أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ صَاحٍ صَبِيحَةً عَظِيمَةً وَقَالَ: هذه صيحة الجاهل به».

قال ابن سودكين راوياً عن شيخه: «رأيت الحلاج في هذا التجلي، فقلت له يا حلاج: هل تصح عندك عليّة له وأشرت، فتبسم وقال لي: أتريد قول القائل: يا علّة العلل، ويا قديم لم يزل؟ قلت له نعم. قال: هذه قولة جاهل، اعلم أن الله تعالى يخلق العلل وليس بعلّة، كيف يقبل العليّة من كان ولا شيء معه، وأوجد من لا شيء، وهو الآن كما كان، ولا شيء جلّ وتعالى!

لو كان علةً لارتبط، ولو ارتبط لم يصح له الكمال، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا! قلت له هكذا أعرفه. قال: هكذا ينبغي أن يُعرف فاثبت».

قال ابن سودكين: سمعت شيخني يقول في أثناء شرحه هذا التجلي: لما اجتمعتُ بالحلاج -رحمه الله- في هذا التجلي وسألته عن العلية، هل تصح عنده أم لا؟ فقال هي قولة جاهلٍ، يعني أرسطو».

ويقول الحلاج واصفًا للمتحققين بالله في وجدهم: «إن لله عبادًا اختارهم من خلقه، واصطفاهم لنفسه، وانتخبهم لسرّه، وأطلعهم على لطيف حكمته، ومخزون علمه، أفناهم عن أوصافهم الناشئة عن طبائعهم، ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم، ولم يوجههم من المرسوم من حكمة الحكماء، بل كان هو لسأهم الذي به ينطقون، وبصرهم الذي به يبصرون، وأسماعهم التي بها يسمعون، وأيديهم التي بها يبطشون، وقلوبهم التي بها يتفكرون».

بان عن حلولٍ في ذواتهم، فأبدى الأشياءَ فيما بينه وبينهم، قهر كل موجودٍ، وغمر كل محدودٍ، وأفنى كل معهودٍ، ظهر لأهل صفوته، ولم يجعل للعلم إلى كيفية ذلك سبيلًا، ولا إلى بحث ذلك تمثيلًا».

صلته القوية بالله:

وغشى مع الحلاج خطواتٌ في آفاقه الذوقية، وفي مواجهته وحبه للذات الإلهية، وفي تلك المجالات الروحية التي ابتدعتها حول صلوات العبد الولي المختار، بمفيض الوجود ومبدعه وملهمه.

وصلة الحلاج بالله سبحانه، تدور على قطبين: الحب الواله القوي الغلاب المذهل، والفناء في هذا الحب فناءً شاملاً يذوب فيه كل شيءٍ ماديٍّ دنيويٍّ ويحترق ليخلد.

ثم مرحلة السير في هذا الحب، ومجالات هذا السير الروحية، بما فيها من إلهاماتٍ وتجلياتٍ، ومواجيدٍ وأشواقٍ وحيرةٍ ودهشةٍ وعذابٍ.

والحب هنا في عذابٍ ملهمٍ، يُعذب في بحثه عن مولاه، ويُعذب في حبه له، ويُعذب في حيرته حيال جبروته وآياته.

والعذاب في الحب الإلهي أكبر خيرٍ يفيضه الله سبحانه على عبده ووليه المحبوب.

وإن لله سبحانه لنظراتٍ وإشراقاتٍ وزياراتٍ للقلب المحب المعبّد المحترق، زياراتٍ تهبُّ ولها مقدّساً، يعقبه هجران يدفع إلى دهشةٍ محلقةٍ.

ومن كل هذه الانفعالات تنبثق مواجيد المعرفة العليا، وتسيحات الولاية العظمى، وينبثق فوق هذا وذاك في قلب المحب، فيضٌ إلهيٌّ يعبر عن الإرادات الإلهية، ويقتبس من نورها وهداها.

وروح المحب الولي، هو وحده الذي يظفر بهذا الحب الإلهي، لا عن طريق الحلول التحيزي، بل بوساطة الفيض النوراني الذي يرفع أرواح الأولياء المحبين إلى المراتب القدسية.

وخلال هذا الفيض أو هذا الاتصال، تحدث الجذبة الروحية التي تصورها لنا تلك المناجاة المشعة المستمرة بين روح المحب ومحبوبة الأسمى الذي تشعر بوجوده في أعماقها.

وحينئذٍ تتوالى ضراعات الروح وترتفع إلى مولاهما بكل آلامها وآمالها وأشواقها في لغةٍ فوق لغة الألسن، وفي تصويرٍ لا يمت إلى العلائق الدنيوية بصليةٍ أو نسبٍ.

يقول الحلاج: «اعلم أن العبد إذا وحَّد ربه فقد أثبت نفسه، ومن أثبت نفسه فقد أتى بالشرك الخفي، وإنما الله تعالى هو الذي وحَّد نفسه على لسان من يشاء من خلقه، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى!».
ومن الكلم المضيء الذي يكشف عن منهج الحلاج وإيمانه الذوقي، تلك الدراسة التحليلية الرائعة التي أدارها الحلاج حول كيفية معرفة الإنسان لربه وحالقه.

ويقول الحلاج عن الخواص العارفين: «فالخواصُّ عباده الذين محاهم عن شواهدهم، وصانهم عن أسباب الفرقة، باستهلاكهم في شهوده، واستغراقهم في وجوده، فأبى سبيل للشيطان إليهم! وأبى يد للعدو عليهم! ومن أشهده الحق حقائق التوحيد، ورأى العالم معترفًا في ثقة التقدير، لم يكن هبًا للأغيار، فمتى يكون للغير عليه تسلطًا!».

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الرسالة القشيرية في علم التصوف، عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد دار الخير ، دمشق وبيروت ، ط1، 1988.
- 2- ديوان الحلاج ، صنعه وأصلحه أبو طريف الشَّيبي ، منشورات الجمل ، بيروت ، 1997.
- 3- الطواسين، الحلاج، إعداد رضوان السح، تقديم عبد القادر الحصني.
- 4- ديوان الحلاج وهو من جمع المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون.
- 5- أخبار الحلاج كتاب إلكتروني من قسم كتب تصوف للكاتب علي بن أنجب الساعي.
- 6- أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج - لويس ماسينيون و بول كراوس.
- 7- في التصوف الإسلامي وتاريخه، لرينولد ألين نيكلسون، ترجمة وتعليق: أبو العلا عفيفي.
- 8- شخصيات قلقة في الإسلام، لعبد الرحمان بدوي.
- 9- ابن قيم الجوزية ، طريق المهجرتين وباب السعادتين ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2003.